ما هى النبوّة وما هى الرسالة ؟
والأدلة العلمية على إمكان الوحى

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى : إما إلقاءً فى الرُّوع ، أو بتوسط مَلَكٍ يتمثّل فى صورةٍ بشريةٍ ، أو فى أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التى لا يدركها غير نبى ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمى المخالف للسنن العادية وَحْياً .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أَوَد جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويُدْعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين فى جميع أدوار الإنسانية .

وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحى ، وأنهم إنما يُدْلُون إلى الناس بما أُمروا أن يُدْلوا به إليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وإن غضب الناس منهم ، وتألبوا على اضطهادهم . وقد أوذى وقتل منهم عدد كبير ، وبُلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا .

الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحى كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها ، فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحانى ، وادعت أن كل ما يقال فيه ، ويسند إليه ، من أوهام الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدّة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحى ، أن يعدل عن الاستناد على الأدلة المنطقية إلى الأدلة العلمية ، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية سُرِّىَ على بحثها الأسلوب العلمى . وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيراً من الجهد يبذل فى سبيل جمعها وترتيبها ، وتهيئتها للدفاع عن النبوة من طريق مباشر يوفر للأدلة كل قوتها الإقناعية ،

وهيبتها الأدبية .

ونحن وقد انتدبنا لخوض غمار هذه المسألة ، نرى أن نتوجه إلى تحقيقها من ثلاث نواح :

(أولاها) هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات ، نَفْثاً فى الرُّوع من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟

(ثانيتها) هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه ، تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرق منها ؟

(ثالثها) هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة ، يُسوِّغ اعتبار النبوة والوحى أمرا ممكنا ؟

فلنعالج هذه المسائل الثلاث على الأسلوب العلمى فنقول :

١ – هل فى الوجود ما يدل على حدوث معرفة من غير طريق العقل والحواس ؟

الجواب : نعم ، إلهام الحيوانات ، والعبقرية .

فأما إلهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون فى حياة الحيوانات من لَدُن أقدم عهود العلم أن للحيوانات ، وخاصة الحقيرة الساذجة منها ، أعمالا فى تطلُّب أغذيتها ، وبناء أَكِنَّتها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر إدراكاتها القاصرة عن الاهتداء إليها لو تركت وشأنها . وإنا عارضون على قرائنا بعضا منها :

الفراش متى وصل إلى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أمَّاتها (أى أمهاتها) قد ماتت ، أى أنها لا تراها . فمن الذى علم إناث الفراش أن صغارها متى خرجت احتاجت إلى التغذى بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها إلى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلق بها فى أى مكان آخر ؟ هل هدتها إلى ذلك أمهاتها ؟ لا ، لأنها لم ترها

فى حياتها . هل هديت إليها بعقولها ؟ هذا مما لا يتصوره عقل لأن إدراكاتها قاصرة . ولو أخذت بويضاتها وأفقستها فى بقاع ليس فيها فراش ، لخرجت تلك الديدان وعاشت عيشها الذى يعيشه نوعها ، حتى إذا تطورت وصارت فراشا عملت العمل عينه الذى يعمله جميع إناث الفراش فى كل بقاع الأرض ، مسوقة إليه بدوافع قاهرة لا تتكلفها . فلم يبق إلا القول بأنها ألهمت هذه الأعمال من القدرة العليا التى أبدعتها .

والحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى أنها لم تر لها ذرية قط . ولكنها قبل أن تبيض تعنى كل العناية بوضع جثث حيوانية ، تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت . فمن الذى أدرى هذه الحشرات أن فى بيضها صغارا ، وأن تلك الصغار ستخرج فى حاجة إلى الغذاء ، وأن ما تحتاج إليه هى تلك الجثث الحيوانية ؟

ومن أعجب المشاهدات العلمية أن الحيوانات المسماة (بومبيل) من أكالة الحشائش ، ولكنّ صغارها تولد من أكالة الحيوانات إلى أمد محدود . فترى الأمّات تعمد إلى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت وجدت ما تغتذى به . فمن الذى أدراها أن صغارها ستخرج من أكالة الحيوانات ؟

والحيوانات المسماة (أوديتير) و(سفكس) تخرج صغارها من بويضاتها محتاجة إلى التغذى بأجساد حيوانات (حية) . فترى أماتها تعمد إلى اصطياد حيوانات لا تقتلها ، ولكن تضربها فى مجمع أعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتَرْكُمها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فإذا خرج صغارها وجدت أمامها غذاءها الضرورى لها .

ومن المحيّرات للفكر ما ذكره الأستاذ (ميلن إدوار) المدرس فى جامعة (السوربون) بفرنسا فقد قال : إن الحيوانات المسماة (إكسيكلوب) تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض إناثها مباشرة ، تخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل وفى هدوء تام وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فإذا أتمته أخذت فى جلب ذخيرة إليه تكفى صغيرا واحدا مدة سنة . تلك الذخيرة هى طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها فى قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنُشارة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهَلُمَّ جَرّا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة هذه الصناعة المحيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها فى حاجة إلى البقاء سنة فى حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟

هذه الإلهامات دليل محسوس على أن قيم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غير طريق الحواس التى لا تستطيع أن تكتسبه بها ، وإذا صح هذا فى عالم الحيوان فهو أولى بأن يصح فى عالم الإنسان ، حيث اتصالاته بالأفق الأعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها أكبر .

ولكن الماديين لما شعروا بالخطر الذى يتهدد مذهبهم من هذه الناحية تألبوا على القول بأن هذا الإلهام عادة موروثة ، أى أن الجماعات الأولى من الحيوانات اكتشفت وسائل حياتها فأورثتها أخلافها ، فصارت فيها غريزة . ولكن كيف اهتدت تلك الكائنات الساذجة إلى هذه الوسائل ولم تَبِدْ قبل أن تجدها ؟ وكيف اتفق أن جميع جماعاتها فى مختلف القارات الأرضية تهتدى إلى وسائل من نوع واحد وليس بينها اتصال ؟ وكيف يعقل أن تورثها لأخلافها وقد ثبت أن الوراثة للصفات والعادات غير ممكنة ، كما قرر ذلك أخص تلاميذ دارون الأستاذ (وسمن) وتبعه أكثر الداروينيين ؟

وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف الفطرية لدى الكائنات الحية ، هى إلهامات إلهية لا شك فيها . قال الأستاذ (بواراك) مدرس الفلسفة فى كلية (كوندرسيه) بفرنسا ورئيس المجمع العلمى فى ديجون فى كتابه الفلسفة صفحة ١٥٨ :

« إن الغريزة عند دارون وهربرت سبنسر أصلها عادة موروثة ، بمعنى أن الحيوان حصل بالتعلم على كل ما يعمله ، وعلمه إذا كان واحدا عند جميع أفراد النوع الواحد ، فذلك فى رأيهم لأن احتياجات وأعضاء هذه الحيوانات متشابهة . إن تفسيرا كهذا يكون نقصه واضحا إذا قوبل بالغرائز المحدودة والكثيرة التركب لدى أكثر الحشرات . فلا التجربة ولا الذكاء الشخصى يستطيع أن يُعلم الحيوان المسمى (اموفيل) الصناعة الجراحية التى تسمح له بشل حركات الديدان الخضراء بدون أن يقتلها ليجعل منها غذاءً لصغاره متى خرجت من بويضاتها » .

وقال الأستاذ (ميلن ادوار) المدرس بجامعة السوربون :

« إن التخيل بأن غرائز النمل مثل أسمى مدركات القوة العقلية للإنسان ، ليست إلا نتيجة عمل الفواعل الطبيعية أو الكيمائية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأحجار ، إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضا ، والطبيعى لا يستطيع أن يعقلها أبدا » .

يرى القارئ مما مر أن العلم الطبيعى نفسه يعترف بحدوث إرشاد وتعليم من جانب القدرة الإلهية للعالم الحيوانى الذى يعجز عن تدبير نفسه والشعور بما يصلحه من المحاولات الضرورية له ، فإنكار حدوث هذا الإرشاد للنوع الإنسانى ، وجماعاته فى أثناء تكوّنها فى حاجة ماسة إليه ، تحكم لا مسوّغ له .

على أن هذا ليس بالاعتراف الوحيد للعلم بحدوث الهداية والإرشاد من غير طريق الحواس أو العقل العادى ، فإن له اعترافاً آخر لا يقل عن هذا خطورة ، وهو فى هذه الدفعة خاص بالنوع الإنسانى ، وذلك من ناحية ما اصطلح على تسميته بالعبقرية .

فما هى العبقرية ؟

شوهد فى تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية فى أرفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها أتتهم عفوا بدون إجالة

نظر فيها ، ولا أقل محاولة منهم لإحداثها بل لم تكن تخطر لهم على بال . وهى تظهر شذوذا وبدون تمهيد . وقد تمر أجيال دون أن يظهر فى أى بقعة من الأرض عبقرى واحد . وأصحاب العبقرية فى مجموع تاريخ النوع الإنسانى يعدون على الأصابع . وقد اعتبرها الفلاسفة الأقدمون حالا علوية لا شأن للعقل فيها . فقد قال أفلاطون :

« العبقرية حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية » .

وليس المعاصرون لنا بأقل من الأقدمين إكبارا للعبقرية ، وجنوحا إلى نسبتها إلى الذات الإلهية . فقد قال فولتير وهو الفيلسوف النقادة الكبير :

« من شروط العبقرية أن يكون فيها ابتكار ، فهذه الخاصة للابتكار هى التى تعتبر منحة إلهية » يريد أن لا عمل للعقل فيها كما ستراه هنا .

وقال العبقرى المشهور فيكتور هوجو :

« لندع ما هو من عمل المخ للمخ ، ولنشهد بأن عمل العبقرية نفحة فوق القدرة الإنسانية ، تستخدم فى بروزها للعيان الإنسان نفسه » .

هذا رأى الفلاسفة والعباقرة أنفسهم ، والعلم الطبيعى يؤيدهم فيما ذهبوا إليه ، ويقرر بأن العبقرية منحة من الطبيعة نفسها لا تحصّلها دراسة ، ولا يوجدها تفكير . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« إن الإلهام العبقرى لا يأتى من طريق التحريض ولا بالإرادة ، ولا بإطالة الروية » . وجاء فيها : « إن كل ابتكار فنى يصحبه عنصر (موهوب) من الطبيعة نفسها . وهذا العنصر لا يستطيع الإنسان أن يوجده بجهوده الذاتية » .

وقال الفيلسوف الكبير (تين) : « Taine »

« العبقرية هبة لا تستطيع أن توجدها أية دراسة ولا أية مثابرة ، فإذا عدمت هذه الهبة استحال العاملون إلى مقلدين وعَمَلة » إلى أن قال : « فإن تحط هذا العامل الخفى بالأسماء الجميلة فسمّه وحيا أو تَدْعه عبقرية كنت محسنا ومصيبا فيما تفعل » .

وقال الفيلسوف الألمانى (هيجل) فى كتابه (علم الجمال) :

« أعمال العبقرية تحدث بذاتها من طريق الإلهام المفاجىء ، فالعمل العبقرى لا يتحصل عليه بالتعلم ولا يقبل التوريث ، فهو هبة من العبقرية وكفى » .

وقال الأستاذ الكبير الدكتور (بيير جانيه) المدرس بجامعة السوربون :

« العبقرية قبل كل شيء إلهامات ، وأعني بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطنى ولا الذات نفسها أن تدعى أنها تملكها ، فهى تحدث على غير علم منّا بها ، ولا تستطيع إرادتنا أن توجدها » .

هذا ويشهد العلم بأن العبقرية أمر خارق للعادة . جاء فى دائرة المعارف الإنجليزية الكبرى (بريتانيكا) فى الطبعة الأخيرة لسنة ١٩٢٩ قولها :

« العبقرية شيء خارق للعادة على وجه الإطلاق ، وأرقى حتى من القوة العلمية الفائقة » . إلى أن قالت : « وهى موهبة فذة لا تقبل التفسير محصورة فى كلمة العبقرية » .

وقرّر العلم أيضاً أنها مما لا يمكن تعليله بالقوانين الأدبية المعروفة ، فقالت دائرة معارف لاروس للقرن العشرين : « إن جميع النظريات تخيب وتفشل إن أريد فهم حقيقة العبقرية » . وقالت : « العبقرية لا يمكن أن تعلل بقوانين » .

وأثبت العلم أيضاً أن العبقرية غير إرادية ، جاء فى المعجم العصرى للغة والعلم المطبوع بنيويورك قول الأستاذ (هازلت) :

« تختلف الألمعية عن العبقرية كما تختلف المقدرة الإرادية عن المقدرة غير الإرادية » .

ونص العلم كذلك على أن الإنسان يملك الألمعية ولكنه لا يستطيع أن يملك العبقرية ، فهى التى تملكه وتسخره فيما تريد إظهاره بوساطته ، جاء فى المعجم العلمى المتقدم ذكره بقلم الأستاذ (لوويل) :

« الرجل الألمعى يكون مالكا للألمعية كما يملك الكثير من الأدوات ويستخدمها فى تأدية ما يريد صنعه ، ولها حد تقف عنده ، ولكن الرجل العبقرى يكون مملوكا للعبقرية ، وهى تحوله إلى كتاب أو إلى حياة على ما يشاء هواها » .

نقول : إن مذهب العلم فى العبقرية ، وحيرته فى تعليلها ، وتصريحه بأنها خارقة للعادة ، وأنها مما لا يعلل بالنظريات ، ولا يمكن التحصل عليها بالدراسة ولا بالتفكير ، وأنها تملك صاحبها وتسخره لأغراضها ، كل هذا يعتبر اعترافا صريحا بأن أرقى مظهر للإبداع الأدبى والمادى يعطاه الإنسان من غير طريق العقل ومنافذ الحواس الجثمانية ، ولا يمكن الحصول عليه بالوسائل العلمية والعملية المعروفة .

ويجب أن يضاف إلى هذا ما شاهده العلم نفسه من الخوارق للعادة فى المجالات العقلية والنفسية ، فإن ذلك يساعدنا على تذليل العقبات التى تقف فى سبيل التدليل على وجود مرتبة النبوة ، وتقرب إلى عقولنا إمكان الوحى .

للأستاذ البيكولوجى الانجليزى (ميرس) (Myers) مدرس علم النفس بجامعة كامبردج كتاب كبير أسماه (الشخصية الإنسانية) (Human Personality) ، ترجم إلى الفرنسية وغيرها ، نقتطف منه بعض ما أورده ، فإن فيه ما يدل على وجود خصائص نفسية عند بعض الناس تكشف عن حقائق خطيرة ، لا يجوز لمن يعالج مسألة النبوة والوحى جهلها .

قال الأستاذ (ميرس) : « كان للمستر بيدلر خاصة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعيِّن على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عددا مؤلفا من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلا : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر أنتج العدد ١٧٨٦١ ؟ أجابك على الفور بأنهما ٣٣٧ و ٥٣ ، وهو يقول إنه لا يدرى على أية حال يأتى بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية » .

وقال الأستاذ ميرس : « كان للمستر (فان دوتيكا) وهو فى السادسة من عمره خاصة فى الحساب العقلى ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن يدرى على أى أسلوب تسير فى نفسه هذه الأعمال الحسابية » .

وقال : « كان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرا فيما يريد الكلام فيه ، مما هو خارج عن الحساب الذى ألقى إليه » .

ونقل عن العالم البيكولوجى والشاعر الكبير (سوللى برودوم) الفرنسى

أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية ألقيت إلىّ منذ سنة وذلك بدون أن أعيرها أقل التفات » .

وقال نقلا عن العلامة الرياضى المشهور (أراغو) : « اعتدت أنى بدل أن أجهد نفسى فى فهم مسألة فى الجلسة التى ألقيت إلى فيها ، كنت أسلم موقتا بأنها صحيحة ، فإذا جاء اليوم التالى دهشت من فهمى كل الفهم ما كان قد ظهر لى معضلا فى اليوم السابق » .

وقال نقلا عن الفيلسوف الكبير (كوندياك) : « إنه كان غالبا يجد أن عملا لم يتم بالأمس قد تم اليوم فى عقله بدون جهد منه » .

وقال : « إن المسيو رينه الشاعر ذكر للدكتور (شابانيكس) بأنه ينام غالبا وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة » .

وقال راويا ما قاله الموسيقى (فنسان دندى) المشهور عن نفسه : « بأنه يرى غالبا وهو فى حالة اليقظة التامة خاطرا سريعا لموضوع موسيقى ، فيحاول بجهد عظيم من العقل أن يضبطه ، كما يفعل الإنسان إذا أراد أن يتذكر مناما » .

قال الأستاذ ميرس : « وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) الفرنسى عن نفسه يقول : « أنا لا أعمل شيئا ، ولكن أسمع ما يلقى إلىّ فأنقله ، فكأن إنسانا مجهولا يناجينى فى أذنى » .

ونقل ميرس أيضا عن الوزير الشاعر الكبير (لا مارتين) قوله : « لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى » . يريد أنه لا دخل لعقله الواعى فى الشعر الذى يعمله .

قال : « وكان (سانت سابنس) مثل سقراط يسمع ما تلقيه الروح الملازمة له إليه » .

قال : « وقد ذكر المسيو (دوكوريل) وهو القصصى الفرنسى المشهور إلى الأستاذ (بينيه) بأن أشخاص أقاصيصه بعد أن تظهر فى عقله بعد جهد منه عظيم ، تصير مستقلة عنه فتتكلم ضد إرادته ، وعلى الرغم من التفاته إليها ، وتتوالى

أمامه عند ذاك أدوار قصته بدون جهد يبذله ولا حركة إرادة ، ولا يكون عليه إلا كتابة أقوال تلك الشخصيات وجمع ما يرى . وإذا حدث أن انقطع عن النظر إلى تلك الشخصيات لسببٍ كعملٍ آخر أو نوم ، استيقظ فوجد روايته تامة فى عقله . قال : وكان إذا تشاغل عن النظر إلى الرواية التى تمثل أمامه سمع بأذنيه أحاديث أشخاصها » .

ونقل الأستاذ (ميرس) ما كتبه القصصى الانجليزى المشهور (وردستورث) فى كتابه (الفاتحة أو تطور عقل شاعر) قال :

« أشعر بضباب باطنى يتحول إلى إعصار ، فأشهد أن قوة بالغة الحد تخترع القطعة وتميل بها هكذا وهكذا إلى كل جهة . هذه القوة الهائلة تنبع من صميم روحى على هيئة البخار الكثيف الذى يغطى السائح المنفرد فجأة . فأشعر إذذاك بأنى هلكت ، فأقف ولا أستطيع أن آتى بأقل جهد يخلصنى مما أنا فيه » .

هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (هـ .و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، لا يشعر به الإنسان العادى ، ولكن يشعر به بعض ذوى الاستعداد لذلك الشعور ، وقد رأيت أنهم من كبار العلماء ، وأجلاء الفنانين ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أنقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكنا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين :

(أولهما) وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس كما تدل عليه حياة الحيوان بجملتها وتفصيلها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التى لم يَهْد إليها عقل ، ولم يَحُم حولها فكر ، على حال خارقة للعادة .

(ثانيهما) وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الإنسان بعلمٍ ، وتسعفه بهدايةٍ ، من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس ، تقريبا للوحى من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه إلى حد أن كذبوا بالنبوات وهى أعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الإنسانى ، وقد ابتنت عليها أكبر الأحداث التى غيرت مجرى الشئون العالمية فى جميع الأدوار الانقلابية . وليس مما

يعقل أو يناسب كرامة النوع البشرى أن تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الأثر فى حياته ، قد قامت على أكاذيب متعمدة ، أو أوهام فكرية .

ومن العبث المحض أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاما تبعثه القدرة الإلهية فى أحقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشرى ، وهو فى أشد الحاجة إليه فى أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفى أثناء تطوراته فى أدوار تلك الحياة المتعاقبة .

وإننى أظن بأنى بما أثبته هنا قد قربت للعقول حدوث الوحى لمن صرحوا للناس بأنهم أنبياء أو مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا إليه وحذروا منه .

وليس هذا كل ما نستطيع أن نقدمه للعقلية العصرية من المقررات العلمية المقربة للوحى من العقول ، فإن لدينا مقررات علمية أخرى نرجو أن ندلى بها فى العدد المقبل إن شاء الله (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٥٨ هـ .

الشكوك فى إمكان الوحى
وعلاجها بالفتوحات العلمية الحديثة

الشك من الصفات العقلية التى نشأت فى الإنسان مع العقل نفسه ، وهو ككل صفاته الأدبية نشأ ساذَجاً ، ثم تطور بتطور الإنسان فى النظر والتفكير . ولما ولدت الفلسفة أصبح أساسا للبحث فيها ، ولكنه لم يكتسب كل قوته إلاّ على عهد الفلسفة اليونانية ، حيث تكثّرت المعقولات ، وتداخلت مناهج البحث فيها ، فكان ذلك داعيا لعلَم من أعلامها وهو أرسطو أن يضع أداة للتدليل وهو المنطق .

ولكنّ صفة الشكّ لم تبلغ أوج سلطانها إلا على يد (رُنيه ديكارت) الفيلسوف الفرنسى ، فقد جعله أساس مذهبه ، واعتُبر بذلك مجدِّداً فى أسلوب البحث عن الحقيقة فى القرن السابع عشر .

فى أثناء هذه التطورات العقلية تولدت فى النفس الإنسانية نزعة جديدة أساسها زيادة التثبّت ، بوضع المعقولات على قرار مكين من الأدلة المحسوسة ، وما دفع بالنفس إلى هذا الموقف الخشن إلا ما ظهر للباحثين فى العلوم من أن كثيراً من المسلّمات المنطقية تحكُّماتٌ فرضها على العقول الجهل بالكون ونواميسه ، وعمدوا إلى وضع منطق دَعَوْه بالعلمى ، جعلوا أساسه أن كل معقول لا يؤيده شاهد من الوجود المحسوس لا يجوز وضعه فى المُدْرَكات اليقينية . فإن كان مما يقتضيه العمل العلمى فلا بأس من تسميته افتراضاً علميا ليمثُل بجانب افتراضات أخرى ، حتى إذا حَظِى بشهادة محسوسة رُفع إلى درجة المسلمات العلمية . وَضَع هذه القاعدة (فرنسوا بيكون) الفيلسوف الانجليزى المتوفى سنة (١٧٢٦) وهو صاحب الدستور العلمى الذى يعتبر سدا منيعا فى وجه الأهواء والأوهام التى قد تتسرب إلى العلوم اليقينية فتفسد كيانها وتلحقها بالأساطير .

ولقد غلا حَفَظة هذا الدستور كما غلا جميع حفظة النظم ، فجعلا من الدرجة التى وصل إليها العلم فى القرن التاسع عشر نهايةً لا محل وراءها لجديد ، وحملهم الغلوّ فى تقديس ما وصلوا إليه إلى اعتبار ظنّيات أعلامهم أصولا يقينية . فلما ظهر

مذهب لامارك فى تسلسل الأنواع الحية ، وتألق نجمه فى أوائل القرن التاسع عشر ، اعتبره علماء ذلك العهد الكلمة النهائية للعلم لكشف سر أكبر مسألة بيولوجية ، وصاروا يَسْتَجْهِلون كل من يجرؤ على التشكيك فيه . فلما ظهر مذهب دارون بعده بنحو ستين سنة ، افتتن به العلماء ودخلوا فيه وتركوا مذهب لامارك من أجله ، وَغَلَوْا فيه غُلُوًّا عظيما حتى عدّوا كلَّ من لا يقول به غبيا . ولكن لم تمض عليه ثلاثون سنة حتى تبين لكثير من كبار العلماء وَهْنُ أصوله الأولية ، فتسللوا منه وعاد كثير منهم إلى مذهب لامارك ، ومنذ عشرين سنة تركوا المذهبين وتمسكوا بمذهب (دوفريس) العالم الهولاندى ، وهو يشايع إيمان الإلّهيين ، فإنه أثبت بالتجربة أن الأنواع تنشأ طَفْرةً متولّدةً من أنواع قديمة ، حاصلةً على جميع مقوماتها بدون تطور تدريجى فى آماد طويلة ، ولا بسبب تأثير البيئة فيها . وفى الوقت نفسه أدركوا أن العلم الذى وصفوا أصوله باليقينيات قرنين متواليين لا تقوم كثير من أصوله إلاّ على افتراضات حتى فى العلوم الرياضية . ارجع إلى ما كتبناه فى مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، وما ألممنا به فى مقالة (منطق الدين) فى العدد السابق .

هذه التطورات المتتابعة فى المقررات العلمية أثرت أعمق تأثير فى عقلية المشتغلين بالعلوم الكونية ، وأورثتهم أدبا عاليا حيال الوجود المحسوس ، وما عسى أن يكون فى ثناياه من القوى المجهولة . فبعد أن كانوا يتعصبون لأصوله المقررة عندهم تعصبا يأباه العلم نفسه حتى عارضوا أصحاب المكتشفات الحديثة معارضة عنيفة انتصارا لتلك المقررات ، أصبحوا يرحبون بالمجددين فى العلم ، بل يرجون أن يكثر عديدهم ليستطيعوا سد الثُّلَم التى أحدثتها الانقلابات المتوالية فيه ، حتى لم يأنفوا عندما حدثت حادثة خارقة للعادة فى أمريكا [1] أن يحققوها ، وأن يعلنوا صحتها وصحة أمثالها ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا بوجود شىء فى الكون غير المادة وقوتها ، ويرمون من يقول غير هذا بالبَلَه أو بالوقوع تحت تأثير العقائد الموروثة .

إن موقف العلم والذين يعبّون من منهله كان قبل الخمسين السنة الأخيرة

---

(١) حادثة ظهور أمور روحانية محققة فى منزل بمدينة هيدسفيل .

موقف خصومة لكل معقول لا يمت إلى المادة بسبب . فكانت مسألة الوحي من المسائل التي يدحضها العلم بكل شدة ، ويعدّها من أبعد المحالات العلمية ، ثقةً منه أن ليس وراء المادة عالم أرقى منها ، بل ليست الروح البشرية التي تعتبر آية الخلق ، إلا مظهرا من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من أعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم علوى وراء الحس ، واستمدادها منه قوةً وسلطانا لا تحصل عليهما فى عالم المادة مهما توسعت فى علاقتها به . وكان الباعث لهؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، إكبابهم منذ نحو تسعين سنة على البحث فى النفس الإنسانية من طريق التنويم المغناطيسى والذهول الذى يقع فيه بعض الناس فيصيرون به أداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

فالتنويم المغناطيسى الذى كشفه الدكتور مسمر الألمانى (١٧٣٣ — ١٨١٥) ، واعترف بوجوده علميا بعد جهاد مائة سنة للحصول على هذا الاعتراف ، قد أثبت أن للإنسان عقلا باطنيا أرقى من عقله العادى كثيرا ، وأنه وهو فى تلك الحالة يرى ويسمع من بعد شاسع ما يحدث وما يقال ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا توجد فى عالم الحس أقل علامة لحدوثه . شاهد هذه الأحوال ملايين من الناس حتى أصبحت أمرا لا يمكن المِراء فيه .

ولكن علماء كثيرين لم يقفوا عند هذا الحد ، فلم يكتفوا بالدرجة الأولى أو الثانية لهذا التنويم بل تجاوزوها إلى حدود بعيدة منه ، فشاهدوا أن العقل الباطن يزداد سموا عما شوهد عليه فى درجات النوم الأولى ، ولا يستمر خاضعا لإرادة المنوِّم . وبالتوغل فى درجات التنويم توصل المجرِّبون إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ، وتمثُل إلى جانبه غير مَرْئيّة ، بينما يكون الجسد فى حالة موت حقيقى لولا علاقة خفية بينه وبين الروح . وقد توصل هؤلاء العلماء إلى تحقيق أمور روحانية — والمنوَّم فى تلك الحالة — أثبتت لهم أن الروح مستقلة عن الجسد كل الاستقلال ، وأنها لا تنحلّ بانحلاله ، وتتصل وهى متجردة عن المادة بالأرواح التى سبقتها إلى ذلك العالم .

وقد عُلم من هذا أن الروح ، عندما يعترى صاحبها نوم طبيعى أو صناعى ، تتصل فى عالمها الروحانى بأمثالها من الأرواح ، ولما تستيقظ لا تذكر شيئا من ذلك لعدم تدخل المخ الجثمانى فى هذا الاتصال .

أما حالة الذهول التى يقع فيها بعض الناس ، فيصحبها حدوث ظواهر روحانية تعتبر من الخوارق التى لم يكن ليحلم بحدوثها العلماء ، استعصت على كل تعليل مستند إلى عوامل مادية ، وقد استحضر لشهودها أكبر مشعوذى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شيء ، ولكنها حوادث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة اليدوية .

إنّى بإلمامى هنا بهذا الفتح العلمى لا أقصد الدعوة له بالذات ، ولكنى أقصد منه أن جمهورا كبيرا من أكبر علماء الأرض أصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحانى ، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الإنسانية ، وأن ذلك يظهر بوضوح فى حالة النوم المغناطيسى وحالة الذهول الذى يقع فيه بعض الناس بسبب مرض أو بسبب استعداد عصبى فيهم . ولو كانت هذه التأكيدات من هؤلاء العلماء كلاميةً فلسفيةً ، لما سمحت لنفسى بالاستناد إليها فى بحث أخذت على نفسى أن أعتمد فيه على العلوم اليقينية . نعم إن هذا الفتح العلمى لم يعمّ جميع علماء الأرض ولم يصبح فرعا من العلم الرسمى ، ولكن الجم الغفير الذى بحثه منهم واعترفوا به فى مدى تسعين سنة ، وفى كل أمة متمدنة ، يفتّ فى عَضُد المادية ، ويُطَأْمِن من كبريائها ، ويشكك المشايعين لها . على أن من لم يقل به من العلماء لم يتسنّ له فحصه . وليس فيمن وُفّق لفحصه واحد أعلن احتقاره له أو استند إلى علم فى دَحْضه . قال العلامة الطبيعى الكبير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى كدارون فى كتابه : (الآيات والمذهب الروحانى فى العصر الراهن) : « أنا على اتصال بتاريخ هذه البحوث وكل ما يكتب فيها ، وقد زججت بنفسى فيها منذ عشرين سنة فلم يتفق مرة واحدة أن رأيت رجلا بحثها بحثا جديا واقتنع بصحة الظواهر الروحية ، ثم عاد ففقد ثقته بها وأعلن أنها مبنية على الخداع والتدليس » .

ونحن لأجل إحاطة هذه البحوث بالاحترام الواجب لها فى نظر القارئين ، ننقل لهم فذلكة من تاريخ اشتغال العلماء بدراسة المساتير النفسية على أسلوب العلم الحديث

- فنقول :

تاريخ تأسيس جمعية المباحث النفسية فى انجلترة سنة ١٨٨٢ .

جاء فى كتاب الشخصية الإنسانية « The Human Personality » للعلامة الأستاذ (هـ . و . ميرس) « H . W . Myers » مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كامبردج ما يأتى :

« حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل فى البلاد حتى وصل إلينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلّة من الزملاء فى كمبردج وأجمعوا رأيا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها ؛ (يريد المباحث الروحية) ، تستحق التفاتاً وجهدا جدّيا أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين . وكنت أرى أنا أن محاولةً جديرةً بهذا الاسم لم تعمل إلى ذلك الوقت للبت فى هل نحن أهلٌ أو غير أهلٍ للإلمام بشىء يتعلق بالعالم غير المرئى ؟ وكنت مقتنعا بأنه لو أمكن معرفة شىء من ذلك العالم على أسلوب يمكن العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب فى الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التى تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها ، فإنها منزهة عن الهوى ، ومُتَرَوًّى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئى المحسوس .

« فالمباحث التى يجب علينا عملها لا يمكن أن تقتصر على تحليل ساذج للأسانيد التاريخية ، أو التى صدرت عن هذا الوحى أو ذاك مما حدث فى الزمان الماضى ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شىء – ككل بحث علمى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة – على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن تزيد عليها غدا ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية وهى : « إذا كان يوجد عالم روحانى ، وكان هذا العالم الروحانى موجودا فى أى عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويُستكشف ، فيجب أن يكون كذلك فى أيامنا هذه » .

« فمن هذه الوجهة وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التى أنا عضو منها هذه المسألة » .

ثم أخذ الأستاذ ميرس يسرد التجارب التى عملها وعملها غيره مما لا سبيل إلى نشره هنا ، ثم قال :

« ما هى الأدلة التى تحملنى على الاعتقاد بأن كل هذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه إذا توصل إلى التحقق ، بغير طريق التأمل ، من الجهل المطلق الذى هو عليه بماهية الوجود الحقيقية .

« إنى أعترف فى كل حال بأن معارفى فيما هو مرجح أو غير مرجح فى الوجود لم تظهر لى كافية لرفض مشاهدات يظهر لى بحق أنها حقيقية ، وأنها مع ذلك ليست مناقضة لمشاهدات وأصول عامة أكثر منها تأسّساً . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعا فإنه — حتى باعتراف ممثلى العلم الرسمى — ليس إلا نظرة عجلى فى العالم المجهول وغير المتناهى للنواميس الطبيعية » انتهى .

هذا هو تاريخ تكوُّن جمعية المباحث النفسية بلوندرة سنة ١٨٨٢ ، من أقطاب العلم فى انجلترة ، ولا تزال باقية للآن ، وقد جمعت من التجارب النفسية ما وقع فى نحو أربعة وخمسين مجلدا ، وهو ذخر علمى لم يوجد له مثيل قطّ فى أى عهد من عهود العقلية الإنسانية . فإذا أراد قراؤنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية فى نظر رجال العلم ، فليقرءوا ما كتبه عنها الأستاذ الكبير وليم جمس فى كتابه إرادة الاعتقاد « La Volonté de Croire » ، وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، قال فى الصفحة ٣١٣ :

« إن جميعة المباحث النفسية التى يمتد عملها فى انجلترة وأمريكا ، قد سمحت بأن يتلاقى العالمان العلمى والروحانى فى مجال واحد . وإنى أعتبر أن هذه الجميعة مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الإنسانية . فبهذا أستحسن أن أفضى إلى القارئ بنتائج أعمالها بإيجاز فأقول :

« إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات ، خيل إلينا أن الضعف العقلى وسرعة التصديق هما الرباط المعنوى الجامع بين أعضاء هذه الجمعية ، وأن حب العجائب هو الأصل المحرك لها . والواقع أنه يكفى أن نلقى نظرة واحدة على أعضائها لدحْض هذه التهمة . فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ سدجويك « Sidgwick »

المعروف بأنه أشد الناس شكيمة فى النقد ، وأعصاهم قيادا فى الشك بجميع البلاد الانجليزية . ووكيلاها المستر ارثر بلفور والأستاذ ج . ب . لنجلى ، سكرتير المجمع العلمى . ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفيزيولوجى الفرنسى الخطير . وتشمل قائمة أعضائها رجالا آخرين كفايتهم العلمية أشهر من نار على علم . فإذا طلب إلىّ أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها مُتّقاةً بأدق أساليب التمحيص ، فانى أنوّه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فإن الفصول الفيزيولوجية التى تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ فى دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة ، حتى أن صرامة الأساليب الكشافة التى طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء ، كانت بحيث توجد اختلاف الآراء فى باطن الجمعية نفسها » انتهى .

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأى العام المجمع العلمى الانجليزى على تأليف لجنة لفحص الظواهر النفسية وتمحيصها ، فندبت ثلاثة وثلاثين علماً من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية . فبذلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ، ثم حرروا تقريراً إجماعيا وقع فى ٥١٤ صفحة ، وطبع فى أكثر اللغات الحية . جاء فى آخره ما نصه :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها فى البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفى كل احتمال فى إعداد آلات لإحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا ، لأن واسطتنا كان أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار فى الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له من غرض مالى يرمى إليه ، ولا أية مصلحة فى غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن تتخيله من التحوطات ، عُملت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب فى أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا ، وإبعاد كل احتمال لتزوير أو توهّم .

« وقد اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس أعضاء اللجنة تجاربهم وهم فى أشد درجات الإنكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها كانت إما نتيجة التدليس أو التوهم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية للعضلات ، ولم يتنازل هؤلاء الأعضاء المتكرون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لاتمكن مقاومته فى شروط تنفى كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التى حدثت فى خلال هذا البحث الطويل هى مشاهدات حقة لا غبار عليها إلخ » .

هذا ما ورد فى ذيل ذلك التقرير الضخم ، ولسنا فى حاجة لأن نقول إن هذا أكبر حدث سُجّل فى تاريخ العلم . ومن العبث المحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضيع أو أن التدليس يروج بين يدى ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتمرسين على النظر والتمحيص وتمييز الغث من السمين فى كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر عالمى عامّ ، فهبَّ ألوف من العلماء والفهماء فى جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألّفوا لها مئات من الجميعات ، ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوفا من الكتب ، ولا تزال هذه المؤسسات قائمة إلى اليوم ، والاهتمام بها يزداد على نسبة كثرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث ، وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية فى لوندرة وباريس وغيرهما ، أصدرت تقارير ضافية ترجمت إلى اللغات الحية .

هذا ولو أردنا أن ننقل شهادات أعضاء المجامع العلمية ، ورؤساء الجامعات ومدرسيها ، والفلاسفة والصحفيين والمحامين ، وجميع من فحصوها من كبار العقول ، لا قتضى ذلك منا مجلدا ضخما ، ولكنا نكتفى بما تقدم فإن فيه بلاغا للمفكرين .

غرضنا من الإلمام بهذه المسألة :

لسنا نقصد بما نشرناه فى هذا الموضوع أن ندعو إليه ، ولكنا نقصد منه أن

تثبت للذين غرّتهم الفلسفة المادية فوقفوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين يظنون أنه ليس فى الوجود شىء فوق ما يعرفون ، أنهم مخدوعون ، فإذا لم نظفر إلا بتشكيكهم ، وتشكيك من يتأثرون بكتاباتهم فيما هم جامدون عليه ، فهذا كسب لنا عظيم .

على أننا نرجو أن يحملهم هذا الشك على ترك خيلائهم بالقليل من المعرفة التى حصلوها ، وعلى التأسى بأقصاب العلم المعاصرين فى التواضع وفى الامتناع عن نفى ما لم يحيطوا بعلمه . وإن لهم فى مثل العلامة الكبير السير وليم كروكس أسوة حسنة ، فإن هذا الرجل الفذ حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمى البريطانى ، وقد قال فى خطبة له فيه ، كما ورد فى مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذلّلت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادى الراسخ الصحيح بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إعمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم .

إلى أن قال : « ولست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إنى اعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا وليس أحد سواى أهلا لأن نحكم بأن شيئا بعينه ليس بموجود فى الكون » (تأمل) .

كذلك لهم أسوة بمثل الأستاذ الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى ومدرس الفيزيولوجيا فى جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور (ماكسويل) النائب العام فى بوردو من فرنسا ، قال :

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصرى مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا .

ثم قال : « لماذا لا نصرّح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ، ليس فى حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتُفلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو

الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟

إلى أن قال : « فالأَوْلى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » .

نتيجة ما تقدم :

يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصّلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسهم من الموجودات . أمّا كُنْه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التى تدبرها ، فلا يزال أمرهما مجهولا . وقد تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا أيضا أن طائفة من أماثل هؤلاء العلماء ، قد وُفقوا منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، إلى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على أسلوبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور فى خلد أحد أن أقطاب العلم المادى يعودون فيثبتون وجودها وقد سبق لهم نفيها ، والتشنيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحى بالاستناد إلى اكتشافات هؤلاء العلماء فى عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجوده بالحس بمن الغرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا ، إدلالا على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التى توصلها إلى كمالها المرجوّ لها ، خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشكوك المحيرة للعقول (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ .

حظّ الأمم من النبوّة
قديماً وحديثاً

يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فإن من اشتهر منهم فى التاريخ العام ، وعُرفت سيرهم ، وضُبطت تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تُعرف أسماؤهم ، و لم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية فى جميع أدوار وجودها صدرت فى حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهنة وبطارقة وموابذة ومعلمين ، بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية إلخ ، ولكن بسبب الظلمات المخيِّمة على تواريخ تلك الأمم لم تعرف أسماء أكثرهم ، و لم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقدير قدرها من الناحية الفلسفية ، وتمييز من يصح أن يحشر منهم فى زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزجّ بهم فى قبيل الدجاجلة والمشعوذين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين .

ليس هذا موطن تحقيق تاريخى لتمييز الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكنا نلفت نظر القارئين إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى فى فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهى أن العالم كله متمدِّنهُ ومتوحّشه ملتفٌّ حول النبوة فى جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة فى أى عهد من عهود التاريخ ؛ فأينما أجلت بصرك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا إلى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أمم وشعوب وقبائل معوّلة فى توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة . فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى توارثتها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لابد من توفيتها على حال من الأحوال ؟

يقول الماديون : نعم ، ويقول الاعتقاديون : لا . فأى الفريقين أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ؟ الماديون بحكم أصولهم مضطرون لإنكار النبوة واعتبارها شعوذة وتدليسا وخداعا ، ولحسبان الملتفين حولها سذجا مخدوعين ، وغفلا مأفونين .

هذا تعليل قليل الكلفة ، سائغ فى نظر الذين لا يهمهم تحقيق الأمور ، ولكن

الذى أوتى نعمة التثبت يصعب عليه أن يتحلل من النظر فى أمر جلل كأمر النبوة بكلمة يلفظها لا يعرف مبلغها من الصحة .

كل الأنبياء مشعوذون مزوّرون ، وجميع الخلق سُذَّج مأفونون ! لو صحَّ هذا لكان أفظع طعن يمكن توجيهه إلى الجبلّة الإنسانية ، وإلى الطبيعة التى كونتها فى رأيهم على هذه الشاكلة . فإن كائنا تستوعب حياته نفسيةٌ من هذا الطراز ، ويتسلط عليه وهم بهذا القدر من الخطر ، ويستمر مئات الألوف من السنين فى هذا الضلال العقلى ، يعتبر وجوده شؤما على الأرض التى يعيش عليها ، ويعد أفضل منه الحيوان الأعجم بما لا يقدَّرُ .

هنا يمكن أن يقول لنا واحد من أنصار هذا الرأى : رُوَيْدك قليلا ! أليست القبائل والجماعات قد تناحرت ولا تزال تتناحر لنصرة صنم من الأصنام ، أو لتأييد وهم من الأوهام ، فهل الأصنام والأوهام مما يجب أن يتعصب له إلى هذا الحد ؟ وهل تاريخ الحروب الدينية إلا سلسلة من هذه الاندفاعات الجنونية ، وراء الأوهام النفسية ؟ فإن شئت أن تنظم الدرارى مدحا فى تقديس هذه النفسية البشرية ، فافعل ، ولكن لا تنتظر أن يخفف النقد العلمى من شدته لأى اعتبار من الاعتبارات .

فأجيبه بقولى : لقد قرَّبت لى البعيد ، وكفيتنى مؤنة سرد الأسانيد الدالة على سمو النفسية الإنسانية ، واسترخاصها حياتها الأرضية فى سبيل غرض لا يمتّ إلى المتع الجسدية بسبب . إنك نظرت إلى السبب المباشر للتناحر ، فوجدته ماثلا فى نصرة صنم من الأصنام ، أو وهم من الأوهام ، ولكنك لم ترتفع عن هذا الحضيض لتشرف على الدوافع الحقيقية الباعثة على تأييد الأصنام أو الأوهام . إنك لو فعلت لرأيت أن الباعث هَمٌّ بعيد الشأو ، عالى القدر ، سامٍ السموَّ كله ، وهو اختراق الحجب الأرضية ، للوصول إلى عالم الروح المحض ، والخير البحت .

لا يعيب هذا الاندفاع الإنسانى أن يكون باعثه المباشر صنم أو وهم ، فقد يكون منشؤهما جهلا أو سذاجة ، وهما عرضان يزولان وتحل محلهما عقائد صحيحة ، وقد تعود فتُحرَّف تلك العقائد الصحيحة ، وهلم جرا ، ولكن الباعث الذى يهيب بالإنسانية إلى الجهاد فى سبيل الروح دائب على العمل ، لا يمل ولا ينى

فى دور من الأدوار .

يجب أن يُجَرّد هذا الباعث الروحانى من كل ما يلابسه من عقائد باطلة ، وضلالات عارضة ليمكن رؤيته على حقيقته ، وتقدير طبيعته ، ومعرفة مدى تأثيره فى ترقية النوع البشرى وتحريره من بهيميته .

أما رأيت فى خلال تاريخ النوع البشرى أن هذا الباعث العالى حمله على تقييد إطلاقه ، وتهذيب أخلاقه ، فعد العدل فضيلة ، والظلم رذيلة ، واعتبر البذل محمدة ، والإمساك مذمة ، وعد التواضع مكرمة ، والتكبر مأثمة ، وحسب المساواة مفخرة ، والتميز معرة ؟

فإن قلت : كل هذا أوجبه — على قول الداروينيين — ما غرس فى طبيعة الإنسان من غريزة الاجتماع ، فهى التى دفعته قهرا للتخلق بما يحفظ وجود الجماعة من الأخلاق الفاضلة ، فتخلق بها قهرا ، وبالإدمان عليها ، كما تقتضيه حاجة الاجتماع ، انطبعت فى ضميره ، فإذا نظر إليها المتأمل السطحى ظنها صفات فطرية علوية ، وما هى فى حقيقتها إلا ضرورات اجتماعية اقتضتها الطبيعة الأرضية ولا أثر للروح فيها .

نقول : كل هذا الكلام معلول ، فإن الاجتماع ليس بحاجة من الأخلاق إلا للقدر الذى عليه النمل والنحل والذئاب والفيران ، وهذه الأنواع كلها ولدت مفطورة على ما يحفظ وجودها الشخصى والنوعى بدون كسب ، فكان يكفى الإنسان أن يولد مفطورا على مثلها ويقف منها حيث وقفت ، أما وهو لم يقف منها عند حد ما يستدعيه الاجتماع ، فتراه يزيدها كل يوم تهذيبا ، عاملا على إنشاء جو أدبى حوله يباين به مادية الطبيعة ، حتى إنه ليحاول أن يخرج نوعه من سلطانها ليعيش فى ظلال آدابه وأخلاقه ومدنيته ، بمعزل عن خشونتها وصرامتها ، فإن هذا كله لا يستدعيه قيام الاجتماع ، ولا هو بحاجة إليه . ألست ترى ألوفا مؤلفة من الجماعات قائمة فى الأرض على أخلاق السباع والذئاب والدُّبَبَة ؟ فأى عامل دفع الإنسان لما وراء حاجة الاجتماع ، فدرس الأصول حتى قتلها خبرا ، وسرى فى سرائر المبادئ حتى لم يدع جِنْواً من أحْنائها يمكن أن تنزوى فيه حقيقة حتى مدّ مِسْباره إليها ، وسلط

عليها من تدبّره نورا كشافا فأدركها ، ولم يَأْلُ فى إضافة ما يجده من أسرار العدل والإنصاف ، وخفايا الآداب والأخلاق ، إلى ما سبق له تسجيله منها ، حتى أصبح لديه كنز منها اتخذه مثلا أعلى لا يزال يحن إليه ، ويود أن يصيبه تطور أدبى جديد فيضطره إلى التعويل عليه .

ما هذا الحنين من الإنسان إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وفيه تقييد للحرية ، وتحديد للحقوق ، وتكاليف على الأقوياء ، وواجبات على الممتازين ، وحقوق للضعفاء ؟

ما هو العامل النفسانى السامى الذى يجعل الإنسان يتمنى أن لو أصبح الناس كلهم متساوين فى الحقوق والواجبات ، فى مجتمع لا أثر فيه للاعتبارات والامتيازات ، بل ما هو ذلك العامل السماوى الذى يحبب بعض النفوس فى الإيثار ، فينزلون لإخوانهم عما يملكون ، وليس فى القانون ولا فى حاجات الاجتماع ما يدعو إليه ؟

إن قلت : إن كل هذا دعا إليه التوسع فى توفية حاجات الاجتماع ، قلت لك : فإن كثيرا من الناس فكروا فى الزهد حتى كان أحدهم يكتفى من الغذاء ببضع تمرات أو تينات ، ومن اللباس بعباءة يجمع حافتيها بخلال ، وآخرين آثروا اعتزال الجماعة ضنا بأنفسهم على موبقات الاجتماع ، وغيرهم شغلوا أنفسهم بالعبادة حتى قد لا تصادف الواحد منهم إلا راكعا أو ساجدا ، فهل كان هذا كله من توليدات غريزة الاجتماع التى يقول بها الداروينيون وهى لا تمت إلى الاجتماع بأدنى سبب ، بل تنافيه فى نظر الكثيرين من العلماء ؟

تأييد الفطرة الإنسانية لتعاليم الأنبياء :

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شىء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها فى حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعاً قديرا حكيما ، وأن لهم روحاً قُدِّر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ، ضد

الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول ، حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وإيثارات وتضحيات ؟ فلو كان الإنسان طينا محضا لما هوى إلى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه .

وقد بلغ نحو ألف وخمسمائة مليون نفس اليوم من المدينة شأوا لم تكن تحلم به الجماعات التى سبقتها فى الوجود ، ومع هذا فهى لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهدا نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين ، رغما عما كتبوا فى صرف الناس عن هذه النبوات ، أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئين مع أن فى تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يُكَرِّه إلى النفوس الحياة الأرضية ، ويَعُدّ المتع الجسدية رِجْساً من الأرجاس ، فإن فيهم ، وليس من أقلهم أتباعا ، من يقول إن جميع المطالب البدنية أقذار لا تليق بكرامة الإنسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء فى الله . وفيهم من يقول ، ولا يقل عن سابقه فى عدد الأشياع : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطه قميصك .

فما السر فى بقاء هذه الأديان إلى اليوم سائدة على الأمم المتمدنة رغما عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؟ السر غلبة عاطفة علوية على الفطرة البشرية الأرضية ، فهى تدين بهذه الأديان على ما فيها لأنها تتنسم من خلال تعاليمها عَرْف الوحى السماوى الذى تولاها فى طفولتها ، وقوّمها فى شبيبتها ، وعزَّاها فى شيخوختها ، ولا يزال ينفحها فى سويداء فؤادها بما يربُّها ويكملها .

العوامل النفسية الخفية فى حياة النبوات :

يشتد الكتاب الماديون فى ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الإنسانية ، بحجة منافاتها للعلم من ناحية ، وعدم حاجة الاجتماع إليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض ، وما حيلتنا فيمن جمدوا على ما هم عليه ، ولم يبالوا بما جد فى العلم من الفتوحات التى أقامت ألوفا من

العلماء وأقعدتهم فى أربعة أرجاء المعمور ، ولا تزال تفعل فى النفسية الفلسفية الأفاعيل ؟

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع إلى النبوات فينمّ عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ، فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه . أما وهو ما ينف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه عنها ، فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها . فيجب على كل باحث فى أطوار الإنسان أن يدرك سر تمسكه بها رغما عن جميع الشبهات التى أثيرت حولها . وإذا شئت أن نفضى إليك بما انتهى إليه علمنا فى هذا الشأن فإليك :

لا جدال فى أن العلوم والفنون قد آتت الإنسان بكل ما هو فى حاجة إليه من مقومات الحياة ، وهى دائبة على إيتائه منها بما لا يدع له معها حاجة إلى المزيد ، ولكنها قد عجزت إلى اليوم عن إيتائه بأعز مطلوب لديه ، وهو (العزاء) الذى لابد منه حيال ما ينتابه من صروف الأيام ، وكوارث الحدثان فى الأهل والنفس والمال .

ماذا يغنى الإنسان أن يحاط من طُرَف الصنائع ، وتُحَف الفنون ، وبدائع المخترعات بما يجعل حياته طيبة هنيئة ، وبما يحببه فى استبقائها واستدامتها ، ويزيده تشبثا فيها ، وولوعا بها ، وهو لا يلبث أن يصاب له عزيز عليه بمرض فيعجز عن علاجه نطس الأطباء ، ثم يختطفه الموت من جانبه فلا تقوى قوى العالم كله على تخليصه من أنيابه ! فإذا شيعه إلى مثواه فى الأرض ، وعاد يبكيه ويندبه أياما وشهورا ، وبدأ يعاود حياته العادية فى وسط هذا النعيم المدنى العظيم ، بوغت بكارثة أخرى من هذا النوع فى عضو آخر من أعضاء أسرته ، أو أصيب هو بمرض خطير يفقده لذة العيش ، ويجعله حيا كميت ، لا يستطيع حراكا ولا همسا ، ويتراءى له الموت كاشرا عن أنيابه بين لحظة وأخرى ، ويدخل إليه الأساة ويخرجون فلا يستطيعون إسعافه بما يعيده إلى حالته الأولى أو ما يقاربها ، وقد يكون فى عنفوان شبابه ، وريق صباه !

هبه قد عُمِّر حتى بلغ من السن عتيا ، فما الذى يعزيه عن شبابه الذى

تصوحت زهرته ، وأخلقت ديباجته ، وعن قواه التى خارت حتى أصبح لا يستطيع النهوض ، وطالعه وجه الموت شاحبا مزعجا فى كل لحظة من وجوده المتعب المثقل بالهموم ؟

إن هذا العزاء للإنسان حاجة لا تعدلها حاجة عنده ، وقد حاول أن يجدها فى كل ما تسمح له به العلوم والصناعة فعجزت ، وعمد إلى صرف عقله عنها بالصهباء والمزاهر والدفوف فقشلت ، بل زادته إيغالا فى الهموم !

هذه الحاجة الماسة إلى العزاء وجدها الإنسان فى تعاليم النبوات ، فهى التى تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا إلى كلمة طيبة توجه إليه ، وأمل — ولو ضعيفا — يعتمد عليه ، فاضطر أن يبقى على هذه التعاليم ، متربصا بالعلم أن يفتح عليه بما يؤيدها ، وقد ظهرت بوادر هذا الفتح بما اتفق له من بحوث تجريبية فى عالم الروح ، فاكتسبت بذلك تعاليم النبوة سلطانا جديدا على العقول ، وكلما تقدمت تلك البحوث ازدادت مرتبة النبوة إشراقا ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) (*) .

* * *

(١) سورة المجادلة (من الآية ٢١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٨ هـ .